الجهاد والإرهاب

الجذر: "جَهَدَ"، من الجذور العربية المتعددة المعانى نظرا لكل ما يعطيه من مترادفات؛ منها: الجَهْدُ، الوُسْعُ، الطاقة (في الرأى والنفس) والمجهود، والمشقة، والقدر من الاحتمال، والإجهاد والاجتهاد. ومن معانيه أيضاً الجَهَاد؛ أى الأرض الفضاء الصلبة التى لا زرع فيها، ومنها الجهد، والمبالغة، والغاية. أما الجهاد بمعنى المجاهدة والقتال فى سبيل الله ومحاربة الأعداء وصد الهجوم عن أمة الإسلام فهو آخر ما يرد من معاني لهذا الجذر. وكلها مترادفات تُستخدم فى اللغة العربية في الحياة اليومية بكافة مجالاتها.

ومن اللافت للنظر أن التعصب الغربي بمستشرقيه وترسانته الإعلامية الكاسحة قد قام باستبعاد كل هذه المعاني، ولا يحتفظ منها إلا بمعنى القتال والعنف، بعد أن أضفى عليها الإرهاب ليكون ذريعة له لاقتلاع الإسلام والمسلمين. وذلك ما نطالعه بتوسع منذ مطلع السبعينيات من القرن العشرين، وإن كان التمهيد له قد بدأ قبل ذلك بكثير؛ فنطالع في "موسوعة الإسلام" التي أصدرها المستشرقون فى مطلع القرن العشرين في أربع مجلدات ضخمة ضمنوها ما في وسعهم من تحريف وعدم أمانة، نطالع تحت كلمة "جهاد" في المجلد الأول ص:1072 ما كتبه المستشرق: " د.ب. ماكدونالد "، الذي بدأ مداخلته قائلاً: "الجهاد يعني فرض الإسلام بالسلاح، إنه واجب ديني على المسلمين بصفة عامة". وينهي تلك المقالة الزاخرة بالتحريف والمغالطات بعبارة يقول فيها: "يجب على الإسلام أن يتفتت تماماً لكي يمكن استبعاد عقيدة الجهاد كلية".!!

ولو حصرنا المعاني المتعددة لكلمة الجهاد بأوسع معانيها لوجدنا أنها تتعلق بعدة مجالات على المستوى الفردي والاجتماعي والأخلاقي والديني، فهي تتضمن مجاهدة المسلم لنفسه وتقويمها، ومجاهدة غير المؤمن بالحسنى، ومحاربة الفساد والتصدي للخيانة بالقتل.

ففيما يتعلق بالجهد على المستوى الفردي يتم التركيز على الحماس والحمية والمثابرة ومقاومة اليأس، وإلى التقدم النفسي والسمو الروحي. وعلى المستوى الديني فهو يتطلب المزيد من التطهر ومحاربة الفساد الذي يهدد المجتمع الإسلامي؛ أى أن غاية الجهاد

القصوى هى تعلم المداومة والمثابرة والصبر والطاعة لله، ومقاومة النفس للوصول بها إلى قمة ازدهارها. ومن ناحية أخرى فهو يتضمن الدفاع عن العقيدة وعن المؤمنين، ونشر رسالة التوحيد بالله بعد أن حاد عنها أتباع التنزيليْن السابقين.

وقبل أن نتعرض لكلمة "الجهاد" في الإسلام بشيء من التفصيل، فمن المنطقي أن نتناول معنى هذه الكلمة في الديانتين التوحيديتين السابقتين على الإسلام، وهما اليهودية والمسيحية، لنرى سياقها التاريخي وندرك ما أتى به الإسلام من جديد.

فما من أحد يجهل كل ما في العهد القديم من عنف ومجازر؛ مجازر وحشية بشعة، قائمة على القتل والتمثيل بالقتلى والهدم والإبادة والاقتلاع؛ إنها مجازر بشعة بمعنى الكلمة. ونطالع في الطبعة الفرنسية للإنجيل الصادرة عام 1860م في سفر يوشع (6: 21): "وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (وحرموا بمعنى قتلوا أو قطعوا دابره). وفي الآية 24 من نفس الإصحاح نقرأ: "واحرقوا المدينة بالنار مع **كل ما** بها، إنما الفضة والذهب والنحاس جعلوها في خزانة بيت الرب". ويرد نفس النص بنفس المعنى في الطبعة العربية لعام 1966م.

فالحرب، أو الجهاد الحربي – إن جاز القول – في اليهودية قائم بالفعل على الإبادة واقتلاع الذكرى، ومحو أى أثر لما كان قائماً من ناس وتراث، أو من ماشية. وهو نفس ما نراه اليوم يتكرر في أرض فلسطين المحتلة، فالشريعة اليهودية واضحة: "قتل الرجال، قتل الملوك، والاستيلاء على الخيرات، وخاصة الذهب والبرونز"! فالنصوص صريحة حيث تنص على: "إحراق المدن وكل المعسكرات حتى لا يبقى أحد من الأحياء، وتمرير كافة الشعب على حد السيف".! ونطالع هذه الوحشية أيضاً في سفر صموئيل الثاني عن الملك داود: "وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس وأمرّهم في أتون الآجُر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم."(12: 31)، (وأمرُهم في أ تون الآجُر؛ تعني أحرقهم في الأفران الخاصة.)

وهنا نتوقف نتأمل فيها ملاحظة لها مغزاها، فهذه الآية السالفة الذكر، والواردة في طبعة 1860الفرنسية تم تخفيف معناها لكيلا نقول قد تم تحريفها، وذلك فى الطبعة الرسمية للإنجيل الصادرة عن الفاتيكان سنة1986؛ أى بعد المصالحة التي تمت مع اليهود عام

1965 وتبرئتهم من دم المسيح، على عكس ما تقول نصوص العهد الجديد. وقد تم تغيير هذه الآية السالفة الذكر إلى:" أما فيما يتعلق بالشعب، فقد أخرجه وجعله يعمل على المناشير والنوارج والفئوس المصنوعة من الحديد، واستخدمه في تصنيع قوالب، وكان يفعل نفس الشيء في كل مدن العمونيين."!!

ومن المضحك أن يتم تعديل هذا المعنى الوحشي لإضفاء لمسة إنسانية؛ إذ نطالع في الطبعة الفرنسية الصادرة عام2001:" وقد أخذ غنائم كثيرة من المدينة واستولى على سكانها ليشتغلوا على المناشير والنوارج والفؤوس المصنوعة من الحديد، ولكي يوظفهم على كمائن الطوب. ولقد قام داود بعمل نفس الشيء مع كل المدن العمونية، ثم عاد مع رجاله إلى القدس".! أى أن الآية قد تحول مضمونها من قتل وتشويه الضحايا بالبتر ونشر الأطراف والحرق في أفران الطوب حامية اللهيب، إلى جعلهم عمالاً يشتغلون على هذه الآلات بعد توظيفهم عليها!! واللهمَّ لا تعليق.

وتصل هذه الوحشية القتالية في الشريعة اليهودية إلى ذروتها الدينية في آية سفر إرمياء (48: 10) التي تقول:".. وملعون من يمنع سيفه عن الدم."، وذلك وفقاً لما هو وارد في طبعة 1860، لأن هذه الآية- مثلها مثل العديد غيرها- قد تم تعديلها لنقرأ في طبعة1931:" ملعون من يبعد سيفه عن المذبحة."، ونطالع في طبعة 1986:" ملعون من يحرم سيفه من الدم".، وفي طبعة 2001: "ملعون من يحرم سيفه من قليل من الدم." وتحولت الآية من أمر صريح بالقتل مفروض على كافة الأتباع – وإلا أصابتهم اللعنة الإلهية – إلى ذلك القدر "القليل من الدم"، والذي يمكن أن يتحول إلى مسح السيف بقليل من الدم، وليس بالضرورة أن يكون آدميا!!

أما في العهد الجديد، فما من أحد يجهل تلك الآية الشهيرة التي يقول فيها السيد المسيح: "وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا". (متّى5: 39)، أو تلك الآية المكملة لمعناها، رقم 44 من نفس الإصحاح: "وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم". ومع ذلك ففي الواقع المعاش نجد أن هذا التسامح الإنساني الذي طالب به السيد المسيح يتحول تلقائياً إلى مشروعية الدفاع عن النفس.

فعندما اعتقله رئيس الكهنة وراح يسأله عن تلاميذه وتعاليمه أجابه السيد المسيح قائلا: "أنا كلمت العالم علانية(...) وفي الخفاء لم أتكلم بشيء" (18: 20-22)، فما كان من أحد الخدام الواقفين إلا أن لطم يسوع قائلا: "أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟!"، وبدلاً من أن يقوم يسوع بتقديم خده الآخر، وفقاً لتعاليمه إذا به يحتد على ذلك الفعل الخسيس قائلاً:"إن كنت قد تكلمت رديا فاشهد على الردي وإن حسناً فلماذا تضربني؟!

ونخرج من هذا الموقف الشديد الوضوح بأنه مهما كانت أبعاد التسامح فإن الدفاع عن النفس أمر مشروع ويأخذ الأولوية، بل هناك من الآيات ما يحث فيها السيد المسيح على استخدام السيف، كأن يقول: "ومن ليس له سيف فليبيع ثوبه ويشتري سيفاً" (لوقا:22: 36). وعندما يتزايد الخطر عليه وعلى حواريه نراه يقول بعنف لا موارية فيه: "جئت لألقي ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت" (لوقا:12: 49)، ثم يواصل في تأكيد هذا العنف قائلاً: "أتظنون أني جئت لأعطى سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم. بل انقساماً لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين واثنين على ثلاثة، ينقسم الأب على الابن والابن على الأب، والأم على البنت والبنت على الأم، والحماة على كنتها والكنة على حماتها" (لوقا:12 51: 53) !

وإلى هذا الحث على إشعال اللهيب والفرقة في البيت الواحد، نرى السيد المسيح يضيف مشاعر الكراهية ليكتسح تعاليم الحب والتسامح؛ إذ يقول بوضوح لا لبس فيه: "إ ن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً" (لوقا 14: 26).

وذلك العنف الصارخ هو الذي تذرع به التعصب الكنسي لينشر المسيحية قهراً بالسلاح والمذابح بعد أن عانت هي من نفس ذلك العنف على أيدي الرومان.

ويكفي أن نستعرض كتب تاريخ العصور الوسطى، بل ما قبلها وما بعدها، مروراً بالحروب الصليبية، وصكوك الغفران، ومحاكم التفتيش، ومواكبتها للاستعمار، والتنصير القهري، واقتلاع السكان الأصليين، حتى ليصاب الإنسان بالغثيان. وإذا ما أضفنا إليها المجازر التي دارت بين النصارى عند قيام التعصب الكنسي بتأليه السيد المسيح في مجمع نيقية الأول عام 325م، ومساواته بالله عز وجل، ثم عند تأليه الروح القدس وإضافته إليهما

ومساواته بالله عز وجل في مجمع القسطنطينية عام 381م، وما تلا ذلك من اعتراضات ومذابح على مر العصور حتى أبادوا شعب الكاتار والبجوميل في جنوب شرق فرنسا، في القرن الثالث عشر، لرفضهم هذا التحريف لعقيدة التوحيد، وكلها خلافات جذرية عقدية لا تزال قائمة ثابتة وثائقياً.

ولكن يبدو أن الغرب المسيحي المتعصب ينسى أو يتناسى تاريخه الدموي المثقل بالدماء والدمار والمؤامرات للسيطرة على السلطة، ويتناسى حروبه الصليبية الاستعمارية ومحاولاته الدءوب لاقتلاع الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا، كما يتناسى تجارته بالعبيد، والتي ظلت حتى القرن العشرين، خاصة ألاعيبه لغرس الكيان الصهيوني المحتل لأرض فلسطين، فما من أحد يجهل أن هذا الغرس الظالم "هو من صنع الغرب، أو الغرب الأكثر كرهاً وعداءً" على حد قول فرديناند بروديل في كتابه المعنون: "**أجرومية الحضارات**" ص130 ، إضافة إلى تلك الأحداث المشينة التي بدأت بمسرحية الحادي عشر من سبتمبر 2001م ، والتي تم الإعداد لها بمهارة شيطانية لإضفاء شرعية دولية لاقتلاع الإسلام في هذا العقد (2000-2010)!

أما مفهوم الجهاد في الإسلام، والذي لا يمثل الجانب الحربي فيه إلا جزئية صغيرة، فهو مفهوم محدد بوضوح لا لبس فيه ومتعدد المعاني والمجالات كما أوضحنا في مطلع هذا البحث. ومن هذه الآيات:

* "ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما.." (آية8 العنكبوت) وجاهداك هنا بمعنى إن ضغطوا عليك، أو أجبروك.

* "الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم.." (آية 79 التوبة) وجهدهم هنا بمعنى مجهودهم.

* "ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم.." آية 53 المائدة. وجهد الأيمان هنا يعني كل ما يمكنهم من قسم.

ومن المعروف أن جذر"جَهَدَ" ورد في القرآن الكريم 41 مرة تحمل في إجمالها أكثر من عشرة اشتقاقات متنوعة المعنى، أما الآيات الخاصة بالمعنى القتالي فمنها:

* "كُتب عليكم القتال وهو كره لكم" (آية 216 البقرة.) والقتال دائماً في القرآن الكريم للدفاع عن النفس ورد العدوان، ولم يرد أبداً بمعنى الهجوم.

* "يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا.." (آية 217 البقرة.)

* "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم". (آية 60 الأنفال.) وترهبون هنا بمعنى التحذير وإثارة الخوف، ولا تعني "الإرهاب" بمعنى القتل والإبادة كما يحلو للبعض أن يحرفوها.

* "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (190البقرة)

* "وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين" (آية 36 التوبة.)

* "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم" (آية 61 الأنفال.)

* "وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم." (7 الأنفال.)

* "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا" (آية 90 النساء.)

* "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون" (آية 6 التوبة).

وهكذا يظهر بوضوح من هذه المقتطفات من الآيات الخاصة بالجهاد أن الجهاد له أصوله وقواعده؛ فهو كره لأنه يبعد المؤمن عن ممارسة فروض الدين بالانضباط المطلوب في مواعيده، ومن خلال ما ورد من تحديد وتقنين للجهاد القتالي في الإسلام يمكن القول إنه يتسم بالنبل والأمانة وعلو النفس، فلا غدر فيه ولا خيانة ولا انتقام.

والجهاد في الإسلام يحرّم على المسلم أن يبدأ بالقتال، وينص على أن يكون الرد على قدر الهجوم الذي وقع عليه، وأن يكون أساساً من أجل الدفاع؛ الدفاع عن الدين، والدفاع عن المسلمين، والدفاع عن الوطن، ولإيقاف الفتن، لأن الفتن عند الله أشد من القتل. أما إن قام العدو بالخيانة فهنا يحق القتل.

ومع ذلك، ورغم تلاعب الكافرين وتحايلهم في الفتن، ينص القرآن الكريم على أنهم إذا استسلموا فليتوقف القتال، وعلى المسلم أن يقبل السلم، فكل الذي يطلبه الله – سبحانه وتعالى – من الكافرين بنعمته عليهم هو ما قاله تحديداً: "وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون" (آية 47 المائدة). وقد قام أهل الإنجيل بإخفاء إنجيل يسوع الذي أوحاه إليه الله –عز وجل – وكان يبشر به بالآرامية؛ لغته الأم. وهذا الإنجيل المنزَّل على يسوع من عند الله- والوارد ذكره في القرآن - قد أخفته الأيدي العابثة، وفرضوا على الأتباع ما قاموا بصياغته في القرون الأولى، فإن اعتبرهم الله – عز وجل – "فاسقون" لما اقترفوه من تحريف فلا ذنب لنا في ذلك. أما الجهاد في سبيل الله لإقامة عقيدة التوحيد فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ بمعنى أن يجاهد بماله ونفسه، بعلمه وخلقه، وفقاً لما شرعه الله؛ معناه أن يجاهد المسلمون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص؛ صفاً لا انقسام فيه، ولا تواطؤ مع الآخر لتنفيذ مآربه؛ معناه أن يدافع المسلمون عن أنفسهم وأرضهم وعرضهم، وعن نظام دولتهم القائم على الشورى الحقيقية، وعلى الترابط بين الحاكم والمحكوم، وليس على القمع والاستبداد.

إن الجهاد في الإسلام أبعد ما يكون عما رأيناه في العقائد الأخرى من إبادة واستعباد، أو اقتلاع، ولا يفرض اللعنة على الأتباع إن تقاعسوا، فقد أوضح الله - عز وجل – أن تتم الدعوة بالحسنى، وأن نخاطب الكافرين بنعمته عليهم بالتي هي أحسن، لكن دون أن نخضع لهم، أو نتهاون في ديننا وتعاليمه، أو نبدّل نصوصه من أجلهم، أو تحت ضغوطهم أيا كانت.

إن وضوح تعاليم الإسلام التى تم حفظها وصونها في القرآن الكريم، والذي وعد الله أن يحافظ عليه إلى يوم الدين، وكل ما يتضمنه من قيم ومثل عليا هو الذي يوضح ويفسر سرعة انتشاره بتلك الصورة التي مازالت تذهل الغرب، والذي مازال يتساءل عن السر في ذلك، وهو ما نطالعه في أحدث المراجع، بل إن هذه الحقيقة تُقال بوضوح، لا لبس فيه، في بعض الموسوعات العالمية مثل موسوعة أونيفرساليس (29 مجلداً)

أما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فلم يقم إلا بتنفيذ ما أمر به الله –عزوجل – وهو حماية الدين القائم على التوحيد المطلق بالله لا شريك له، وحماية الدولة الناشئة من أي فتنة وحماية حدودها؛ الحماية والدفاع وليس الهجوم وإبادة الآخر، فما كان عليه إلا البلاغ؛ إذ

توضح الآية: "فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين" (آية 92 المائدة)، "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر" (آية 21 و22 الغاشية).

لذلك أوضح الرسول –صلوات الله وسلامه عليه – أن القتال يمثل "الجهاد الأصغر" لأنه جهاد موقوت بفترة زمانية معينة هي مدة المعركة القتالية، أما "الجهاد الأكبر" ؛ الجهاد الحقيقي، فهو ذلك الجهاد الذي يتعين على كل مسلم ومسلمة أن يقوم به، فهو جهد واجتهاد ومثابرة من أجل العلم والتقدم والرقي في كافة المجالات؛ دنيوية وعبادية، كما أن تحديد الرسول –صلوات الله وسلامه عليه – بعبارة "الجهاد الأصغر" و"الجهاد الأكبر" لدليل على أن هناك أنواعاً متعددة من الجهاد، منها الصغير والأصغر، ومنها ا لكبير والأكبر، إن هناك، بالتالي درجات متعددة علينا أن نرتقى إليها في مسيرة جهادنا الممتدة مدى الحياة.

ومن هنا نرى أن أحاديث الرسول- عليه الصلاة والسلام- كانت تدور كلها حول نفس المعنى، فأوصى بعدم بدء المعارك، ونص على عدم قتل النساء والأطفال والمسنين، وعلى ألا تدور المعارك إلا مع من يقوى عليها، كما أمر جنوده بالابتعاد عن الفتن وأن يخشوا الله في السر والعلانية، وأن ينصروا الحق، وأن يطالبوا بالحقوق المسلوبة، وأوضح ألا يستمروا في القتال إذا ما جنح العدو إلى السلم، كما أوصى بحماية الأسرى، وبالحفاظ على البيئة ومواردها، وعلى حماية الرهبان في أديرتهم.

وهو الأمر الذي أدى إلى تغيير جذري في المجتمع العربي، وإلى تحوله من الوثنية إلى الإيمان بالله وحده بلا شريك، وإلى توقف الغارات لغزو القبائل، وإلى استتباب الأمن وتأمين أمن الدولة، وإقامة الترابط الأخوي والديني بين الأفراد بدلا من العداوة والكراهية.

واستناداً إلى كل الآيات الواردة في القرآن الكريم، والخاصة بمختلف أنواع الجهاد، وإلى كافة الأحاديث المتعلقة بنفس الموضوع فلا يمكن لنا إلا أن نؤكد بوضوح أن الإسلام أبعد ما يكون عن الاتهامات الظالمة التي يكيلها له الغرب المسيحي المتعصب، وأن كلمة الجهاد بأوسع معانيها تعد من الكلمات الشديدة الإنسانية، وأبعد ما تكون عن ذلك الجانب العدواني الذي يحاولون إلصاقه بها ليجعلوا منها مرادفاً للحروب الصليبية التي شنوها ولا يزالون.

أمَّا فيما يتعلق بالإرهاب والإرهابيين، فأول ما نبدأ به هو أن هذه الكلمة في الغرب، وخاصة فرنسا، مأخوذة عن اللاتينية في حوالي 1356 م، وتم استخدامها بمعنى الإرهاب المرعب المهلك عام 1625، ومنذ 1789 أصبحت هذه الكلمة تعني كافة الوسائل القمعية السياسية التي تمارسها الدولة للسيطرة على معارضيها. و"عصر الإرهاب "، أو "عصر الرعب" (La Terreur) هو مسمى الحكومة الفرنسية التي حكمت أيام الثورة الفرنسية فيما بين يونيو1793 ويوليو1794 ، والتي سالت فيها الدماء حتى فاضت أنهارا ؛ إذ راح ضحيتها مليونان من الثوار فيما بين1789 و1815 ، وما يساوي 40% من إنتاج الذهب كله في القرن الثامن عشر.(**"ثمن الثورة الفرنسية"** بقلم رنيه سديود)، ومنذ ذلك الوقت تولدت مختلف اشتقاقات الكلمة وممارساتها؛ أي أن كلمة الإرهاب والإرهابيين مرتبطة - أصلاً وموضوعاً- ارتباطاً وثيقاً بالسياسة الغربية عامة، والفرنسية خاصة، كما أنها مرتبطة بكل ممارساتهم التعسفية في كافة الحروب الصليبية والاستعمارية والتبشيرية، بل وحتى عندما تطاحنت هذه القوى فيما بينها ؛ أي سواء أكانت هذه الحروب فيما بين الغرب المتعصب ونفسه، في تناحرالسلطة الكنسية والسلطة المدنية، أو فيما بين القارات، فإن المسيحية لم تعرف تمزقات ومعارك إبادية ومجازر كاسحة بسبب نفس تكوين العقيدة وتحريفها عن مسار التوحيد بالله الذي لا شريك له، إلا من المسيحيين أنفسهم. فعلى حد قول المؤرخ اللاتيني أميان مارسلان عنهم: "لا يوجد حيوان وحشي أكثر ضراوة للإنسانية في كراهيته المقاتلة من المسيحيين في خلافاتهم الدينية". وهذا وارد أيضاً في كتاب:**" اليوم الذي أصبح فيه المسيح إلهاً"** بقلم ريتشارد روبنشتاين ص 226 طبعة 1999.

وكل هذه المعارك الإرهابية الطاحنة، والتي ندفع جميعاً ثمناً لها، ناجمة عن تأليه السيد المسيح في مجمع نيقية الأول سنة 325م، وعن فرض الثالوث، وفرض فكرة مقتله وصلبه، وكلها أمور صارت تزخر بها المراجع الغربية، وقد انتهى نفس هذا الغرب من حسمها، سواء بإنكار وجود السيد المسيح أصلاً، أو إثبات أن كل ما يفرضه التعصب الكنسي عبارة عن تجميع من أساطير وديانات وثنية كانت سائدة آنذاك، لكيلا نقول شيئاً عن ذلك الإلحاد الذي تفشى بسبب كل ما زخرت به الصفحة السوداء للتعصب الكنسي على مر العصور.

وهنا تجدر بنا الإشارة إلى آ ية كريمة، بخلاف كل تلك التي تدين عمليات التأليه والتثليث، إذ يقول القرآن الكريم: "وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم بذلك من علمٍ إلا اتباع الظن وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً."(157-158النساء) وحينما يستخدم الله- عزوجل- في قرآنه كلمة "يقيناً" فذلك يعني أن هذا القول الحق هو الذي وقع بكل تأكيد، ومن ثمّ فما على الصادقين من العلماء والدارسين إلا أن يتبينوا الحقائق في أقبيتهم.

أما فيما يتعلق بالإرهاب، فما من أحد يجهل أن توسع الغرب المسيحي المتعصب بدأ منذ القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ولا يزال، وهو توسع يمثل أحد أهم الأحداث في تاريخ الإنسانية، وإن هذه الأحداث كلها تدين ذلك الغرب المستعمر، وتدين وحشيته اللا إنسانية؛ إذ إن هذا التوسع وهذا الإثراء الناجم عنه قد تم فعلاً على حساب إبادة شعوب بأسرها، واستعباد شعوب أخرى مع نهب ثرواتها وإخضاعها لأحكامه الاستبدادية الظالمة.

ولا يسع المجال هنا لاستعراض ذلك التاريخ الدامي المثقل بالظلم والمآسي، ويكفي أن نطالع ما كتبه الأسقف الإسباني بارتولومي دي لاس كازاس، عن المستعمرين والمبشرين الإسبان، وكيف " كانوا يتراهنون على من يمكنه فلق الهندي طولاً بضربة سيفٍ واحدة، أو أ ن يفصل رأسه بضربة، أو أن يلقي بأمعائه أيضاً بضربةٍ واحدة " وذلك من باب الترويع وفرض التنصير، **"القصة الموجزة لهدم سكان أمريكا الأصليين"** (ص:2)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الأسقف الذي بدأ طريقه إلى العالم الجديد مستعمراً مبشراً منصراً، قد تحول إلى واحد من أوائل المؤيدين لحقوق الإنسان من هول ما رآه من رفاقه المبشرين ضد السكان الأصليين. وقد صدرت الطبعة الكاملة ليومياته عام 2002 في ثلاثة أجزاء ضخمة، بعد أن ظلت محجوبة ثلاثة قرون، وإن كان قد أوصى بحجبها ثلاثة أجيال!!

وهؤلاء المبشرون الذين اقترفوا الأهوال الإرهابية التي يصعب وصفها لم يبتدعوها من تلقاء أنفسهم، إنما كانوا يواصلون ما بدأته محاكم التفتيش من فظائع، خاصة

بعد أن قام البابا إنوسنت الرابع عام 1244 بإعلان خطابه الرسولي المعنون:"**من أجل الانتزاع**" والذي يقر فيه استخدام التعذيب لانتزاع الاعترافات التي يريدونها.

وأياً كان اسم المستعمر فإن النسق والوسائل كانت شبه واحدة تقريباً. ونطالع في كتاب: "**العبودية والاستعمار**" (ص 49) إن الكرباج يمثل جزءاً لا يتجزأ من النظام الاستعماري، فالكرباج هو الأداة الرئيسة؛ هو روحه المحركة؛ هو الناقوس الذي يُقرع للسكان الأصليين، وفي كلمة واحدة: "الكرباج هو التعبير والمحرك الوحيد". ونطالع في نفس المرجع ص 94: "إن القسس في المستعمرات لا يقومون بمهمتهم التبشيرية، وإنما يكتفون بفرض الخضوع، أما كلمة الحق فلا تقدم للعبيد إلا محرَّفة."

وعلى عكس الإسلام الذي ينص على تحرير العبيد وإلغاء نظام العبودية، فإن الأناجيل تزخر باستمرارالعبودية وفرض الخضوع للملاك الإقطاعيين، ويكفي أن نطالع رسالة بولس إلى أهل أفسوس، أو رسالته الأولى إلى تيموثاوث، أو رسالته إلى طيطس، أو الرسالة الأولى لبطرس والعديد من الآباء والقديسين والبابوات الذين كانوا يعتبرون تجارة العبيد تجارة شرعية.

والحديث عن الاستعمار والعبودية يقود حتماً إلى الحديث عن فرض الإرتداد والتنصير الذي يمثل جزءاً لا يتجزأ منه حتى وإن اتخذ تاريخ التبشير ملامح مختلفة، وسواء أكان ذلك أيام جريجوار الكبير، أو عصر الاكتشافات الكبرى، أو الاستعمار، أو حتى ثورات التحرر منه، فإن عمليات التبشير تواكب ـ دائماً ـ الحركات السياسية والعسكرية، وهو نسق لم يتغير، بل لا يزال يتواصل حتى حرب العراق الغاشمة التي أرسلت- من خلالها- الولايات المتحدة قوافل المبشرين وأناجيلهم مع عتادها الحربي الاستعماري.

ومن المعروف أن عبارة العنصرية تولدت من جراء هذه الأحداث، حتى وإن كان اشتقاق الكلمة يرجع إلى عام 1902 ، إلا أن استخدامها قد تزايد فيما بين الحربين العظميين ، لكن ذلك لايمنع من أن الغرب قد مارس هذه العنصرية بكل ويلا تها قبل ذلك التاريخ بكثير؛ إذ إن العنصرية تسير جنباً إلى جنب مع الاستعمار والتبشير والتهجير والتوسع الرأسمالي والتصنيع، فالعنصرية تعني مجمل النظريات والعقائد التي تقيم التدرجات الاجتماعية بطبقاتها بين الأجناس والعرقيات ؛ أنها نظرية سياسية قائمة على منح

جنس معين حق السيادة على أجناس أخرى، ومن الغريب أن نرى الغرب المسيحي المتعصب، والذي يزعم التحضر، يقوم بالتبرير الشرعي للفوارق والتمييز بين البشر، وهذا النسق من التفرقة والسيادة المزعومة هو الذي أصبح سائداً في المنهج السياسي لأوروبا والولايات المتحدة لتصنيف الشعوب وتفتيتها ؛ خاصة إذا ما كان لذلك علاقة بالإسلام والمسلمين.

ومن العبارات التي تندرج -أيضاً- تحت باب الإرهاب والتعصب الديني والعنصري الذي يمارسه الغرب المسيحي كلمة "العالم الثالث" والتي يشيرون بها إلى المجتمعات الناجمة عن ضراوة الاستعمار وامتصاص ثروات الشعوب ، فهناك حوالي مليار ونصف من البشر يعيشون تحت خط الفقر حيث تمارس عليهم عمليات التغريب الثقافي والديني الذي يرمي إلى اقتلاع الهوية من جذورها، وتساندها العمليات السياسية والعسكرية التي تمثل الوجه الآخر لهذه الترسانة التي تواصل تدخلاتها من خلال ما تفرضه على أصحاب القرار والحكام المحليين من ضغوط متنوعة متعددة.

فالرعب والإرهاب والإرهابيون مسميات مرتبطة بالسياسة المتعصبة التي يقودها الغرب المسيحي منذ العصور الوسطى، وهى الفترة التي عادة ما يحددونها فيما بين سقوط الإمبراطورية الرومانية عام 476م وسقوط القسطنطينية عام 1453، وهي الفترة التي تتسم بالتفتيت السياسي وتقسيم المجتمع إجمالاً إلى سادة وعبيد ، وكل هذه الأحداث التاريخية والمآسي الإنسانية التي تتم عن طريق الإرهاب الذي تتزعمه الولايات المتحدة والغرب ومنظمات دولية خاضغة لهما بحاجة إلى وقفة جادة ليفهم فيها ذلك الغرب المسيحي الغاشم أن الإسلام أبعد ما يكون عن تلك الا تهامات التي يفرضونها عليه من خلال عملية إسقاط لم تعد خافية على أحد، وإن كان هناك ثمة خطأ يمكن القول بأنه يقع على الإسلام فهو أن الإسلام والمسلمين يمثلون شهادة إلهية منزَّلة وثابتة ضد كل ما قام به الغرب المسيحي المتعصب من تحريف وتبديل في رسالة التوحيد المطلق بالله عزوجل. فكل ماتم من تحريف الرسالتين السابقتين سواء بالعودة إلى عبادة العجل وقتل الأنبياء وتأليه السيد المسيح 325م واختلاق بدعة الثالوث والشرك بالله هو الذي أدى إلى مجيء الإسلام وإعادة رسالة التوحيد المطلق بالله عز وجل ، فالسياسة التي يمارسها الغرب المسيحي المتعصب هي التي أوجدت

الإرهاب ومارسته وصدّرته وفرضته على العالم على مر العصور من خلال ممارسات متعجرفة ظالمة وليس الإسلام، السياسة التي سمحت باقتلاع أو إبادة شعوب بأسرها، والسياسة التي ضربت بكافة القوانين والأعراف الدولية والشرعية الإنسانية عرض الحائط لتغرس الكيان الصهيوني المحتل لأرض فلسطين ، السياسة التي سمحت باختلاق ما أطلقوا عليه عبارة "العالم الثالث" وامتصاص ثرواته الإنسانية والطبيعة حتى الثمالة، ثم اتهامه بالإرهاب، تلك السياسة هي التي بحاجة إلى إعادة نظر حتى تستقيم الأمور.

وسواء أكان ما يتم حاليا يندرج تحت مسمى "قانون الغاب" أو"إرهاب الدول العظمى"، فإننا بحاجة إلى وقفة، بحاجة إلى وقفة حقيقية يقوم فيها المتحضرون الحقيقيون في هذه الدول الكاسحة بوقف ما تقوم به من عربدة جامحة على سطح الأرض، يقومون بوقف ذلك العنف الذي يقودنا جميعاً إلى حافة الهاوية بزعم "اقتلاع الشر" الذي هو الإسلام والمسلمون في نظرهم.

إن الولايات المتحدة قد أسندت لنفسها دور السيادة لقيادة العالم بلا منازع ، وقد اغتصبت هذا الدور بفضل 725 قاعدة عسكرية موزعة عبر العالم ، وبفضل 250000 جندي ينتشرون لحماية مصالحها ، فاستيلاؤها على المواد والموارد والتحكم في السياسات والاقتصاد العالمي للحفاظ على سطوتها يتم عن طريق استعباد الشعوب التي فرض عليها التخلف لتسود عقلية أشبه ما تكون بعقلية العصابات ورعاة البقر، عقلية بلا أخلاق أوضمير، والتي ينجم عنها نظام عالمي ظالم، بل مجنون، إنها عقلية سلبية مزدوجة الأوجه والمعايير، متفاخرة، عقلية الأقوى ظلماً، والذي يديرالعالم والعلاقات الدولية مع تقسيمه إلى مسيحيين يتم فرضهم بكافة الوسا ئل، ومسلمين مسلوب منهم كلِ شيء، ويعملون لاقتلاعهم- ليل نهار- بكافة الوسائل والأساليب.

إن هذا التقسيم الظالم للعالم إلى شمال وجنوب، أو إلى عالم حر متحضر وعالم مستعبَد متخلف ليس سوى نتيجة لسياسة مغتصبة، عنصرية، وقحة، لا إنسانية، نتيجة لعمى وصمم بلا حدود، فذلك العالم الحر، ذلك العالم الذي يزعم أنه متحضرمدين بأعلى كم من الجثث الناتجة عن الظلم والقهر والجرائم. إن ذلك العالم الحر الزاعم تحضراً مدين لنا – نحن سكان العالم الثالث المنهوب بقوة السلاح ولي الرقاب - بكل البذخ الذي يعيش فيه بفضل

المواد الأولية التي ينتزعها منّا، وبفضل العقول التي استقطبها لتهاجر لديه، وبفضل مختلف أنواع الحرمان التي تُفرض علينا، إن ذلك العالم الحر، المتحضر اسماً، الملحد، أو العلماني، لا يكف - بمنطق لا منطق فيه- عن أن يفرض علينا مسيحية هو أول من يعلم كيف تم نسجها والتلاعب بها عبر المجامع على مر العصور.

عندما يستعرض المرء كل هذه المآسي المحزنة، وكل هذا الظلم المتعمد، والذي تم فرضه قهراً، وبصلف بارد، فإنه يصعب علينا أن نصدق أن كل ذلك قد تم بأيدي أناس يتجرءون على وصف أنفسهم بالحرية، والديمقراطية، والتحضر.

وبدلاً من بذل كل ذلك الجهد، وبكافة الوسائل والطرق لإقتلاع الإسلام والمسلمين، أليس من الأبسط والأكرم محاولة فهم الإسلام، وفهم لماذا أنزله الله-عز وجل- بعد كل ما تم من جرائم وتحريف؟!

إن الإسلام لا يفرض نفسه على أحد "فمن شاء فليؤمن ومنشاء فليكفر." (آية29 الكهف)، وقبل ذلك كان القرآن الكريم قد أوضح: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي." (آية 256 البقرة)

إن السلام العالمي يعد أحد المحاورالتي تلتف حولها تعاليم الإسلام وفروضه، إلا أن السلام لا يمكن أن يستتب إلا تحت راية المساواة والعدل؛ لذلك أفرد لهما الإسلام مكانة كبرى، لأن العدل لا يمكن أن يتم إلا مع استبعاد الظلم، وذلك هو ما أوجب الجهاد، فالمطالبة الصادقة بالسلام تستوجب مطالبة مماثلة الصدق بالعدل.

ترى هل سيمكن للغرب المسيحي عامة والولايات المتحدة خاصة أن يكونوا على مستوى المسئولية الإنسانية العادلة والضرورية لمحو كل ما قاموا به من آلام ودمار، وكل ما فرضوه، ولا يزالون، على العالم الإسلامي من ظلم وظلمات منذ بداية انتشاره إلى يومنا هذا؟ هل يمكنهم أن يكونوا على مستوى فعل منصف يبدأ بنزع إرهابهم الذي يديرون به الأمور، وأن يبدءوا بالاعتذار عن كل ما اقترفوه من عنف وتعسف وعدوان على مر العصور، بدءاً بإلغاء ديون العالم الثالث التي تم فرضها عن طريق سرقات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي؟ هل يمكنهم أن يقوموا بالتمييز بين الإرهاب الذي فرضوه على العالم

بسياساتهم والدفاع المشروع عن النفس، والذي فرضته علينا مواقفهم الظالمة؟ هل يمكن أن يقوموا بالتفرقة بين السارق والمسروق، وبين المستعمِرالغازي ومن تقع عليه هذه الغزوات؟ هل يمكن لذلك الغرب المسيحي الأعمى أن يغير موقفه جذرياً ويبدأ فى التعامل مع الدول الأخرى على مستوى الندية الإ نسانية لإقامة نظام قائم على العلاقة التكاملية الإ نسانية بلا تمييز، وليس على العبودية والاستغلال، والإرهاب؟

من المؤسف والمحزن أن نقول: إ ن كل ما يدور من أحداث وبإرادة متزايدة السلبية والسلطة، بل ببجاحه مستفزة وتمييزية يثبت بكل أسف أن ذلك الغرب المسيحي المتعصب أقل بكثير مما نأمل نحن- سكان العالم الثالث- الذي اختلقه ظلماً من أجل الحصول على ثرواته والسيطرة عليه.

إننا لا نعتقد أنه على ذلك المستوى من الأمانة الإنسانية حتى يهرع للتخفيف من كل ما اقترفه من تعسف وكل ما فرضه من آلام ومآسي ومحن قام بها عن طيب خاطر، وبكل صلف وجبروت على مر القرون بلا داعٍ..

إننا نتحدث عن حقوق سليبة.. نتحدث عن حقوقنا.

2002

كشف المراجع

. Le Qur'ān : Traduction du sens de ses Versets, par Dr Zeinab ABDELAZIZ, éd. Organisation Mondiale de l'Appel Islamique, Libye, 2002

• Abdel-Wahab, Ahmad : al-Harb al-Machruah fil adyan (la guerre légitime dans les religions) éd. Maktabet al-Turath al-Islami, le Caire, 2000

•El-Bouti, Muhammad : al-Jihād fil Islam (le Jihād en Islam) éd. Dar el-Fekr al-Moasser. Beyruth 1997

•Braudel, Fernand : Grammaire des Civilisations. éd. Artaud-Flammarion, Paris, 1987

•Al-Bukhari : Sahih al-Bukhari, éd. Dar al-Salam, Riyad, Arabie Saoudite, 1997

•Charnay, Jean-Paul : L'Islam et la guerre. Fayard, Paris, 1986

•Guénon, René : Symboles de la science sacrée. Paris, Gallimard, 1962

•Kepel, Giles : Jihād, expansion et déclin de l'islamisme. Gallimard, Paris, 2000

•Khalil, H. Imam , dr : al-irhab wa hurub al-Tahrir al-Wataneyya (Le Terrorisme et les guerres de libération nationales) Dar al-Mahrusa, le Caire 2002

•Kotb, Sayed : Dirasat islamiyya (Etudes islamiques) éd Shuruk, le Caire, 10e édition, 2002

•Léon, Pierre : Histoire économique et sociale du monde. Paris, Armand Colin, 1978

•Schoelcher, Victor : Esclavage et colonisateur. Paris, P.U.F. 1948

•Sédillot, René : Le Coût de la Révolution Française. Perrin, 1987

•Sévillia, Jean : Le Terrorisme intellectuel de 1945 à nos jours. Perrin, 2000

•Wieviorka, Michel : Le Racisme, une introduction. éd. la Découverte/Poche, Paris 1998

•Ziegler, G. & Popov, Y. : Un Dialogue Est-Ouest. éd. P.-M. Favre, 1987